

إلى متى سيبقى المرور بالمرحلة الأساسية في مدارسنا من أقسى التجارب؟

مها دنديس

كان هناك طفل في العاشرة من عمره، في الصف الرابع الأساسي في مدينة الخليل، كان سعيداً مليئاً بالحيوية، ولكن بعد مرور فترة من الزمن، لاحظت أنه أصبح منطوياً على نفسه، خالياً من الحيوية التي كنت أعرفه بها، وأحياناً كثيرة كنت أراه يبكي، وعندما أسأله يقول إن طلاب الصف ضربوه، لأنه لا يقرأ ولا يكتب.

تكرر هذا المشهد يوماً بعد يوم، وأصبح نحيفاً جداً، ووجهه شاحب، فقررت أن أجمع معلومات أكثر عن سبب الحالة التي يمر بها هذا الطفل. ومن خلال الحديث معه ومع أهله، تبين أن الطفل يتعرض للضرب وللسخرة والإهانات من قبل معلميه، لأنه لا يعرف القراءة والكتابة، والطلاب بالتالي يعاملونه كما يعامله المعلمون، يضربونه ويسخرون منه ويمزقون كتبه، وعندما يتوجه إلى المدير شاكياً، يصرخ المدير في وجهه "اذهب إلى صفك!". وفي طريقه إلى البيت يضربه أبناء الجيران، لأنهم في المدرسة نفسها، وعندما يذهب إلى أمه شاكياً، تقول له: "ماذا أفعل أنا؟ لا أستطيع فعل شيء"، ووالده في العمل من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الثامنة مساءً يأتي متعباً، ولا وقت لديه لحل مشكلة ابنه الذي يعتبره فاشلاً، لا أمل فيه بأن يتحسن، وقال: "لقد تحدثت مع أهالي الطلاب الذين يضربونه، ولكن من دون فائدة". وراجعت المدير، ووعدني بأن يهتم بالموضوع.

وجدت نفسي أمام مشكلة وعليّ أن أحلها، ففكرت كثيراً بطريقة مساعدته، فهو يعيش في بيئة تسيء معاملته ومع عائلة غير واعية لمشاكله، فهو مهمّش في المدرسة وفي البيت أيضاً، ففكرت أن الخطوة الأولى التي يجب اتباعها هي نقله من مدرسته إلى مدرسة خاصة، وتحدثت مع المديرية عن حالته النفسية وعن وضعه الأكاديمي، وإن رفع حالته النفسية كان هدفي الأساسي من نقله إلى هذه المدرسة. وتحدثت مع جميع معلماته عن أهميته الاهتمام به، وطلبت من والديه الاهتمام به أكثر، وإعطاءه ثقة بنفسه، وتعليمه كيفية الدفاع عن نفسه، ومراجعة معلميه ومدرسته بشكل دوري.

وأتذكر عندما زرته في أحد الأيام، قالت لي معلمته عندما كنا نمر من جانب مقعده: كان يخبي رأسه بيديه، هذا لأن معلميه في المدرسة السابقة كانوا معتادين على ضربه على رأسه كلما مروا بجانبه. وقالت لي معلمة اللغة العربية إنه كان في أول أيام عندما يقرأ طلاب الصف الدرس يحفظه غيباً، وعندما يأتي دوره في القراءة يقرأه كاملاً دون أن يعرف أين تقع الكلمة التي يقولها، ولكن مع الوقت والاهتمام، أصبح لا يحفظ بل يقرأ.

بعد مرور 8 أشهر، أصبح يقرأ ويكتب كأبي طفل آخر، فلم تبذل معه المعلمات جهداً كبيراً، ولم يعطنه حصصاً إضافية، فقط عاملته كابن لهن، ابتسمن في وجهه ودعمنه معنوياً، مدحنه وجعلن رفاقه في الصف يرغبون في مصادقته، وهو الآن ينتظر بفارغ الصبر أن تنتهي العطلة الصيفية ويعود إلى مدرسته.

وفي نهاية هذه القصة ، أرغب في كتابة بعض التوصيات للمعلمين والمديرين :

طلابنا أمانة بأيديكم ، وابتسامه منكم قد تغير مجرى حياة أحدهم ، وإهانة منكم قد تنهي مستقبله ، وتهز ثقته بنفسه ، فيجب أن يكون عند المعلم القدرة على مساعدة مثل هذا الطالب على أن يسير مع طلاب صفه ، فإذا أهمل المعلم الطالب مدة شهر ، بعدها لن يستطيع المضي مع طلاب صفه ، يجب ألا يمر المعلم عنه كأنه غير موجود ، فلو كرس له عشر دقائق كل يوم ، وشجعه سيرى أن الطفل قد سار بالمجرى الذي رسمه له المعلم ، وإذا كان إكمال المنهاج أو المشرف أو وقت الحصة هو العائق ، فأريد أن أضرب لكم المثال التالي : لو قرر أحدكم الذهاب إلى المسجد الأقصى للعبادة ، ووجد أن الطريق أمامه مغلقة ، فهل سيتراجع أم أنه سوف يسلك طرقاً أخرى فرعية ، سوف يتسلق الجدران ويمشي من الأراضي الزراعية ويفتح ويكتشف طرقاً أخرى توصله إلى هدفه وهو العبادة مهما كلفه ذلك من وقت وجهد ، أو ليس مساعدة مثل هذا الطالب وإيصاله إلى حيث وصل طلاب صفه عبادة؟

ووصيتي إلى المدير :

إن وظيفتك حماية مثل هذا الطفل ، فعندما يأتيك شاكياً خذ شكواه بعين الاعتبار ، اتخذ التدابير اللازمة لمنع أي أذى قد يصيبه ، احرص على مراقبة سلوك المعلمين والطلاب داخل المدرسة ، تواصل مع الأهالي في المنطقة للحد من العنف .

ووصيتي إلى الأهالي :

اهتموا بأبنائكم ، علموهم كيف يدافعون عن أنفسهم عندما يتعرضون للضرب والإهانة ، ادعموهم نفسياً ، ارفعوا ثقتهم بأنفسهم ، وعاملوا أبنائكم جميعاً بطريقة عادلة ، أشعروهم بالأمان وأنكم ستكونون دائماً بجانبهم ، اكتشفوا ما لديهم من مواهب وتموها .

وفي النهاية أقول لكم إن هناك العديدين مثل هذا الطفل في مدارسنا ، قد تعرفهم أنت ولا أعرفهم أنا ، فإذا عرفنا سبب المشكلة ، سوف نجد لها الحل ، فلنتعاون جميعاً لمساعدتهم .

مها دنديس
معلمة رياضيات - الخليل



من اللقاء الأول لمشروع الطفولة المبكرة والثقافة العلمية الذي نظمه المركز في مقر المؤسسة في رام الله .